شعر العامية بين نتاج مجتمع و تكنولوجيا

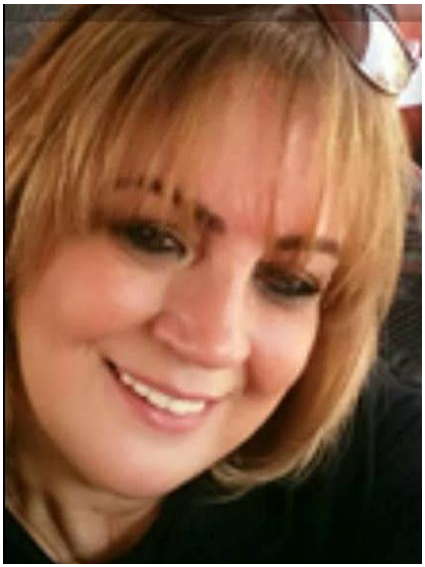

فاطمة عباس

لا يقول الإنسان كلامًا إلّا وله هدف من ورائه أو غرض يريد تحقيقه.. وإلّا عُدّ هذا الكلام هذيانًا. فحين تُردّد القصيدة العامية على ألسنة شعراء موهوبين ندرك من خلالها روح المجتمع الذي ينتمون إليه، ونستكشف الآراء في مختلف شؤون الحياة . كما وأن القصيدة

المحكية تعكس بصدق المشاعر والأحاسيس والآمال والآلام والأفراح والأحزان والتفكير والحكمة.

فالقصيدة العامية أو الشعبية هي مرآة لكلّ شعب. لذا نرى أنها هي السمة الأخلاقية لسكان أي منطقة وعاداتهم وطبائعهم وأحوال معيشتهم. كما تصوّر عاداتِهم المتوارثةَ في مجال المعالجات التقليدية، ولطالما صوّرت القصيدة العامية في البلاد العربية الحرمان الذي تعيش فيه العامة، وضيق ذات اليد. وهذا ما دفع بشعراء العامية إلى إطلاق أحلامهم في قصيدة ..

عند الحديث عن شعر العامية ينبغي عدم الخلط بين ثلاثة أنواع شعرية تستخدم العامية وهي على التوالي:

ـ الشعر الشعبي: بما له من خصائص جمعية تتعلق بالموضوع والشكل الفني والمشافهة وطقوس الأداء.

ـ الزجل: بما فيه من مباشرة مقصودة فى معالجة موضوعاته التي تتصل غالبًا بالنقد الاجتماعي.

ـ الشعر العامي: وهو شعر تكتمل فيه عناصر الشعرية. فإلى جوار الوزن والقافية نجد الصور، والحالات الشعرية، والإيقاع، والرموز الفنية.. والتشكيلات الجمالية.. والرؤى الفكرية. ومن شأن هذه العناصر أن تنتج قصيدة واثقة ترتكز على خلفية ثقافية تراثية..

ولا تقتصر على متابعة كل ما هو جديد في تقنيات الإبداع الشعري أيًّا كانت لغته. والنوع الذي نقصد الحديث عنه هنا هو شعر العامية الذي اتُّهم أصحابه بأنهم ضد القومية العربية بسبب كتابتهم باللهجات المحلية. وإن كان أبرز الدوافع الفكرية والسياسية الكامنة خلف الكتابة بالعامية المصرية مثلًا في بداية الستينيات هو الانحياز للطبقات الشعبية والترويج للمدّ الفكري القومي بالقصيدة والأغنية بين العامل والفلاح. وعلى هذا يكون دافع الاختيار اللغوي للعامية لدى هؤلاء الشعراء دافعًا قوميًّا وليس دافعًا مضادًّا للقومية.. ورحم الله العقاد الذي أدرك هذا مبكرًا حين قال: «إن اللهجة العامية التي اتّخذها بيرم [التونسي] أداة له في الكتابة لا تتناقض أبدًا مع العروبة والثقافة العربية، لأن بيرم لم يكن يكتب بالعامية ليعبّر عمّا هو إقليمي ومحدود، بل ليعبر عن الروح العربية بلهجة شائعة من اللهجات التي يتكلمها العرب في حياتهم اليومية.»

كما تجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن اختيار العامية لغةً للإبداع الشعري أمرٌ لا علاقة له مطلقًا بالسوقية والابتذال والتدنّي الفني فكما يقول «ميخائيل باختين» (فيلسوف ولغوي ومنظر أدبي روسي): إنه «من الواضح أن اللهجات بدخولها إلى الأدب ومساهمتها في لغته، فإنها تكفّ عن أن تكون ما كانت عليه بصفتها لهجات»، حيث تكتسي العامية في إطارها الشعري ثوبًا جديدًا يكون بالتأكيد أبهى من أثواب الفصحى إذا كان الشاعر العامي أكبر موهبة من الشاعر الفصيح.

كما أن الأفكار المطروحة في القصائد العامية قد تكون في كثير من الأحيان أكثر عمقًا وفلسفة من نظيرتها في الفصحى. فكما يقول إبراهيم فتحي: «لن يصعب على أحد التأكد من أن بعض أنواع (الفصحى) في الشعر كانت بعيدة عن الفصاحة العربية الحية. وأن بعض أنواع (العامية) كانت أقل انتماء إلى (عامة) الشعب العربي.»

يُعد تفاعل الناس مع القصيدة تفاعلًا مع الحياة، فهمًا واستمتاعًا.. فالوعي بالحياة وما يتوجب علينا فعله تجاهها للوصول إلى أفضل معيشة مستقرة ومتوازنة مع الكون هو هدف القصيدة دون الدخول إلى معترك التقييم الأخلاقي أو الخطابية، بل التأثير الشفاف للشعر بما يفعله في النفس من تأثير قائم على التجلي الشعري لمخاطبة النفس. كما قالوا قديمًا: ثلاثة قادرون على تفكيك الكون وإعادة تركيبه بشكل مختلف "النبي والفيلسوف والشاعر"، وأنا أعتقد أن تجربة هذا الجيل من الشعراء –مع التحفّظ على مفهوم الجيل– تحاول التعامل من هذا المنطلق القائم على الجدل مع الموروث لفهمه ومحاولة تنميق القصيدة بأصدائه وقيمه، وذلك بسبر أغوار الكون من منظورٍ واعٍ ومفارق لما سبقه لاختلاف التجربة واختلاف زمن كتابة النص واختلاف المعطيات الحياتية.

من هنا يجب أن نصرف الذهن إلى أنه لا علاقة نستطيع أن نوجدها بين التكنولوجيا والشعر. وهو أمر طبيعي فالتكنولوجيا مجموعة وصلات مادية تعتمد على إعطاء الأمر للآلة. وعلى الآلة تنفيذ الأمر دون الرجوع إليك. فهي تعتمد على مرجعيتها المستقاة

أساسًا من مجموعة الأوامر التي توفّر لنظام التشغيل عمله. وما عليك إلّا إعطاء الأمر بالشكل الصحيح، وعلى المرجعية أن تقوم بالتنفيذ. لكن ألا يتقاطع هذا مع نظام القراءة التشغيلي بمعنى أن القراءة التي يمارسها الإنسان العادي تمتلك نظامًا تشغيليًا أيضًا له مرجعيته شبه الآلية؟ ولنبدأ بالصوت وهو الأساس في اللغة، لأنه العامل الأول لخروج اللفظ عند الإنسان، وهو الذي يعطيه القدرة على إبداء كل حرف وتجميعه في مقطع لغوي واحد يعطي معنى للكلمة، والتي تتجمع بدورها مع مجموعة الكلمات لتعطي معنى الجملة في تراتبية يحددها المتكلم أو الكاتب، وتلك التراتبية تحددها العملية العقلية التي تصنع الصورة الذهنية للحرف لتنقله من صورته الذهنية في الخريطة اللغوية للعقل، إلى الواقع عن طريق انفعالٍ نفسيّ يعتري المتكلم أو الكاتب ليعطي القدرة على وصل كل الكلمات بعضها بالبعض الآخر حتى تتضح الصورة الكلية لتمام المعنى أو للفت انتباه السامع.

بعد تمام هذه العملية في الخريطة اللغوية التي هي مجموع التصورات المختلفة والخبرات والتعليم والقراءات اللغوية التي يحصِّلها الفرد خلال حياته، ويدمجها ليصنع شكلًا نهائيًا للغة في ذاكرته؛ بعد تمام هذه العملية يبدأ الربط بين الكلام والكتابة، كتلك الرموز السحرية التي ما إن يقع بصرك عليها حتى ينتقل المعنى تلقائيًا إلى ذهنك. وهي "الصورة الكلامية" للحديث/الكتابة.. وهذه الصورة تتلاقى مع فكرة آلية التعامل مع فضاء الصفحة الورقي، أو الفضاء الإلكتروني حين الكتابة على جهاز الكومبيوتر، أو على المدوَّنة مما يعطي إحساسًا مختلفًا للتعامل مع عملية الكتابة.

لكي نكون أكثر تحديدًا يجب أن نرى هذا التحالف بين الفضاء الإلكتروني والفضاء الخيالي في نوع محدد من الكتابة. وليكن الشعر الذي يعتمد في جزء من آلية كتابته على محاولات لوضع تصوّر عن العالم والذات من خلال كسر حاجز اللغة التقليدي والانتقال إلى ما يسمّى "اللغة الجديدة"، وهي اللغة التي تتعامل مع المهمّش وبلاغته وذاكرة الواقع المعاش والكلام اليومي واللغة الدارجة.

نحن إذن أمام حالة من الخيال الجديد المعتمد على تطويع اللغة والتكنولوجيا في أشكاله الكتابية.. فتطويع التكنولوجيا يأتي من خلال استعمال مفرداتها في لغة الشعر.

وقد يتم تطويع التكنولوجيا في عملية التبادل المعرفي للنص، أو دائرة الديمومة. فالكتابة لا تتوقف على فكرة الإرسال للقارئ فقط، بل تتخطى الحدود ليشارك المتلقي أيًا كان مكانه في الكتابة. فهو يقوم بالتعليق، وبالتالي يقوم الكاتب بالتعليق على تعليقه ويدخل آخرون في دائرة التعليقات التي تثري العمل ككل. وقد يعجب الكاتب بتعليق من شخص ما يغير رؤيته إلى منظور جديد. فيعيد اكتشاف النص وكتابته من هذا المنظور، مما يفضي بنا إلى الالتفات إلى أهمية فكرة دائرة الديمومة في علاقة المبدع بالمتلقي، وتأثير ذلك على النص، وهناك تأثير آخر يصطنعه المبدع عند تعامله مع فضاء الصفحة الإلكترونية، فهو قد يستخدم التأثير البصري في تحريك بعض الحروف مما يلفت الاهتمام إليها، أو إضافة صورة إلى النص مما يؤثر على المتلقي في

إضافة مساحة بصرية جديدة إلى النص تزيد من مساحة الخيال وعمليات الربط بين الصورة والأحرف المتحركة وبين النص ككل.

إذن نحن أمام فتح كبير لعملية الكتابة الجديدة وعلى المبدع الالتفات إليه، وإلى آلياته التي لا تعترف بحدودٍ، وتقتضي التعامل مع مؤثرات بصرية حديثة ومجازٍ لغوي يبتعد عن التقليد، وينهج نهج كسر حدود الزمان والمكان ليتطلع إلى شكل كتابي متعدّد ومنفتح ومتجدّد مع تجدُّد التطور التكنولوجي الدائم.

المهم أن ذلك الكائن المختلف –الكتابة الجديدة- هو الذي يحيا بالشعر.